الرسالة الهزلية

بقلم

أ.د/ على أحمد عبد الهادى الخطيب

وكيل الكلية

الرسالة الهزلية

أما بعد ، أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش فى الشهاب ، فان العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب • وانك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صفرت منه أيدى أمثالك ، متصديا من خلتى لما قرعت دونه أنوف أشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوادة ، كاذبا نفسك أنك ستتنزل عنها الى ، وتخلف بعدها على :

ولست بأول ذى همة دعته لما ليس بالنائل

ولا شك أنها قتلتك اذ لم تضن بك ، وملتك اذ لم تغر عليك فانها أعذرت فى السفارة لك ، وما قصرت فى النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليت فى مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خلت أن يوسف — عليه السلام — حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ، والاسكندر قتل دارا فى طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك ،

والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك ، وشيرين قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك • وأن مالك ابن نويرة انما ردف لك ، وعروة بن جعفر انما رحل اليك وكليب بن ربيعة انما حمى المرعى بعزتك ، وجساسا انما قتله بأنفتك ، ومهلهلا انما طلب ثأره بهمتك ، والسموءل انما وفى عن عهدك ، والأحنف انما احتبى في بردك ، وحاتما انما جاد بوفرك ، ولقى الأضياف ببشرك ، وزيد بن مهلهل انما ركب بفخذيك ، والشنفرى بن السلكة انما عدا على رجليك ، وعامر ابن مالك انما لاعب الأسنة بيديك ، وقيس بن زهير انما استعان بدهائك ، واياس بن معاوية انما استضاء بمصباح ذكائك ، وسحبان انما تكلم بلسانك ، وعمرو بن الأهتم انما سحر ببيانك ، وأن الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك ، والحملات بين غيس وذبيان أسندت الى كفالتك ، وأن احتيال هرم لعلقمة وعامر حتى رضيا كان ذاك عن اشارتك ، وجوابه لعمر — وقد سأله عن أيهما كان ينفر — وقع عن ارادتك ، وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجدك ، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك ، والمهلب أوهن شوكة الأزارقة بأيدك ، وفرق ذات بينهم بكيدك ، وأن هرمس أعطى بلينوس ما أخذ منك ، وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما نقل عنك ، وبطليموس سوق الأسطرلاب بتدبيرك ، وصور الكرة على تقديرك ، وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك ، وكلاهما قلدك في العلاج ، وسألك عن المزاج ، واستوصفك تركيب الأعضاء ، واستشارك في الداء والدواء ، وأنك نهجت لأبي معشر طريق القضاء ، وأظهرت

جابر بن حيان على سر الكيمياء ، وأعطيت النظام أصلا أدرك به الحقائق ، وجعلت الكندى رسما استخرج به الدقائق ، وأن صناعة الألحان اختراعك وتأليف الأوتار والأنقار توليدك وابتداعك ، وأن عبد الحميد بن يحيى بارى أقلامك ، وسهل بن هارون مدون كلامك ، وعمرو بن بحر مستمليك ، ومالك بن أنس مستفتيك ، وأنك الذى أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحد الماهية ، وبين الكيفية والكمية ، وناظر فى الجوهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ، وفك المعمى ، وفصل بين الاسم والمسمى ، وصرف وقسم ، وعدل وقوم ، وصنف الأسماء والأفعال ، وبوب الظرف والحال ، وبنى وأعرب ، ونفى وتعجب ، ووصل وقطع وثنى وجمع ، وأظهر وأضمر ، واستفهم وأخبر ، وأهمل وقيد ، وأرسل وأسند ، وبحث ونظر ، وتصفح الأديان ، ورجح بين مذهبى مانى وغيلان ، وأشار بذبح الجعد ، وقتل بشار ابن برد ، وأنك لو شئت خرقت العادات ، وخالفت المعهودات ، فأحلت البحار عذبة ، وأعدت السلام رطبة ، ونقلت غدا فصار أمسا ، وزدت فى العناصر فكانت خمسا ، وأنك المقول فيه : « كل الصيد فى جوف الفرا » •

و : ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

والمعنى بقول أبى تمام :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

والمراد بقول أبى الطيب :

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها

فكدمت فى غير مكدم ، واستسمنت ذا ورم ، ونفخت فى غير ضرم ، ولم تجد لرمح مهزا ، ولا لشفرة محزا ، بل رضيت من الغنيمة بالاياب ، وتمنت الرجوع بخفى حنين ، لأنى قلت :

لقد هان من بالت عليه الثعالب

وأنشدت :

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب ، حتى ليس فيها عجائب

ونخرت وكفرتها ، وعبست وبسرت ، وأبدأت وأعدت ، وأبرقت وأرعدت .

هممت ولم افعل وكدت وليتنى

ولولا أن للجوار ذمة ، وللضيافة حرمة ، لكان الجواب فى قذال الدهنق ، والنعل حاضرة ان عادت العقرب ، والعقوبة ممكنة ان أصر المذنب .

وهيا لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ، ملؤها حبيبها ، حسن فيها من تود ، وكانت انما حلتك بجلال ، ووسمتك بسيماك ، ولم تعرك

شهادة ، ولا تكلفت لك زيادة ، بل صدقت سن بكرها فيما ذكرته عنك ، ووضعت الهناء مواضع النقب بما نسبته اليك ، ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك ، فالمعيدى تسمع به خير من أن تراه .

هجين القذال ، أوعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة ، جافى الطبع ، مسىء الاجابة والسمع . بغيض الهيئة سخيف ، الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كثير المعايب ، مشهور المثالب ، كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقها ، ومشيك هرولة ، وغتاك مسأله ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة .

مساو لو تسمن على الغوانى لما أمهرن الا بالطلاق

حتى ان باقلا موصوف بالبلاغة اذا قرن بك ، وهبنقة مستحق لاسم العقل اذا أضيف اليك ، وطويسا مأثور عنه يمن الطائر اذا قيس عليك ، فوجودك عدم ، والاغتباط بك ندم والخيبة منك ظفر ، والجنة معك سقر .

كيف رأيت لؤمك لكرمى كفاء ، وضعتك لشرفى وفاء ! وأنى جهلت أن الأشياء انما تنجذب الى أشكالها ، والطير تقع على الافها ! وهلا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان ، وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتناربان وقلت : الخبيث والطيب لا يستويان ، وتمثلت :

أيها المكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

وذكرت أنى علق لا يباع فيمن زاد ، وطـائر لا يصيده من أراد وعرض لا يصيبه الا من أجاد ، ما أحسبك الا كنت قد تهيأت للتهنئـة وترشحت للترفئة ، ولولا أن جرح العجماء جبار ، للقيت من الكواعب ما لاقى يسـار ، فما هم الا بدون ما همهت به ولا تعرض ، لا لأيسر ما تعرضت(١) .

أين ادعاؤك رواية الأشعار ، وتعاطيك حفظ السير والأخبار ! أما ثاب لك قول الشاعر :

بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع وتنكح فى أكفائها الحبطـات

وهلا عشيت ولم تغتر ! وما أشك أنك تكون وافـد البراجم ، أو ترجع بصحيفة المتلمس ، أو أفعل بك ما فعله عقيل بن علفة بالجهنى حين أتاه خاطبا ، فدهن استه بزيت ، وأدناه من قـربة النمل ومتى كثـر تلاقينا ، واتصل ترائينـا ، فيدعونى اليك ما دعا ابنـة الخس الى عدها من طول السواد ، وقرب الوساد !

وهل فقدت الأراقم فأنكح فى جنب ، أو عضانى همـام بن مرة فأقول : زوج من عود ، خير من قعود ! ولعمرى لو بلغت هـذا المبلغ ،

---

(١) سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ـ تأليف جمال الدين ابن نباتة المصرى بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت من ص ٤ : ٧ .

لارتفعت عن هـذه الحطة ، ولا رضيت بهذه الخطة : فالنار ولا العار ، والمنية ولا الدنية ، والحرة تجوع ولا تأكل بثديبها .

فكيف وفى أبناء قومى منكح وفتيان هزان الطوال الغرانقة

ما كنت لأتخطى المسك الى الرماد ، ولا أمتطى الثور بعد الجواد فانما يتيمم من لم يجد ماء ، ويرعى الهشيم من عدم الجميم ، ويركب الصعب من لا ذلول له ، ولعلك انما غرك من علمت صبوتى اليه ، وشهدت مساعفتى له : من أقمار العصر ، وريحان المصر ، الذين هم الكواكب علو همم ، والرياض طيب مشيم .

من تلق منهم تقـل لاقيت سـيدهم
مثل النجوم التى يسرى بها السارى

فحن قدح ليس منها ما أنت وهم ؟ وأين تقـع منهم ؟ وهل أنت الا واو عمرو فيهم ، وكالوشيظة فى العظم بينهم ! وان كنت انما بلغت قعر تابوتك ، وتجافيت عن بعض قوتك ، وعطرمت أودانك ، وجررت هميانك ، واختلت فى مشيتك ، وحـذفت فضـول لحيتك ، وأصلدت شاربك ، ومططت حاجبك ، ورفعت خط عذارك واستأنفت عقد ازارك ، وجاء الاكتنان فيهم ، وطمعا فى الاعتـداد منهم ، فظننت عجـزا ، وأخطأت استك الحفرة .

والله لو كساك محرق البردين ، وحلتك مارية بالقرطين ، وقلدك عمرو الصمصامة ، وحملك الحارث على النعامة ، ما شككت فيك ، ولا سترت أباك ، ولا كنت الا ذاك .

وهبك ساميتهم فى ذروة المجد والحسب ، وجاريتهم فى غاية الظرف والأدب ، ألست تأوى الى بيت قعيدته لكاع ، اذ كلهم غرب خالى الذراع ! وأين من انفرد به ممن لا أغلب الا على الأقل الأخس منه ! وكم بين من يعتمدنى بالقوة الظاهرة ، والشهوة الوافرة والنفس المصروفة الى ، واللذة الموقوفة على ، وبين آخر قد نضب غديره ، ونزحت بيره ، وذهب نشاطه ، ولم يبق الا ضراطه ! وهل يجتمع لى فيك الا الحشف وسوء الكيلة ! ويقترن على بك الا الغرة والموت فى بيت سلولية !

تعالى الله يا مسلم بن عمرو
أذل الحرص أعناق الرجال

ما كان أخلقك بأن تقدر بذرعك ، وتربع على ظلعك ، ولا تكن براقش الدالة على أهلها ، وعتر السوء المستثيرة لحتفها ، فما أراك الا سقط الحشاء بك على سرحان ، وبك لا بظبى أعفر أعذرت ان أغنيت شيئا ، وأسمعت لو ناديت حيا .

ان العصا قرعت لذى الحلم والشىء تحقره وقد ينمى

وان بادرت بالندامة ، ورجعت على نفسك بالملامة ، كنت قد

اشتريت العافية لك بالعافية منك ، وان قلت : « جعجعة بلا طحن » و « رب صلف تحت الراعدة » وأنشدت :

لا يؤيسنك من مخدرة قول تغلظه وان جرحا

فعدت لما نهيت عنه ، وراجعت ما استعفيت منه ، بعثت من يزعجك الى الخضراء دفعا ، ويستحثك نحوها وكزا وصفعا فاذا صرت اليها عبث أكاروها بك ، وتسلط نواطيرها عليك ، فمن قرعة معوجة تقوم فى قفاك ، ومن فجلة منتنة يرمى بها تحت خصاك ، ذلك بما قدمت يداك ، لتذوق وبال أمرك ، وترى ميزان قدرك .

فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى(٢)

★ ★ ★

تعريف بالكاتب :

هو الوزير « أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيد المخزومى » الأندلسى ، الكاتب الشاعر المشهور . ولد « بقرطبة » سنة أربع وتسعين وثلاثمائة وكان من أبناء الفقهاء ، وانقطع الى أبى الوليد بن جهور ، أحد ملوك الطوائف فتمكن من دولته واشتهر ذكره ، وعظم قدره ، واعتمد عليه فى السفارة بينه وبين ملوك الأندلس ، فأعجب به القوم وتمنوا ميله اليهم لبراعته ، وحسن سيرته ،

---

(٢) ذاته ص ٩ .

ثم نقم عليه « ابن جهور » فحبسه ، واستعطفه « ابن زيدون » برسائل عجيبة ، وقصائد بديعة فلم تنجح ، ولم تفد ، فهرب واتصل « بعباد بن محمد » صاحب « اشبيلية » الملقب « بالمعتضد » كان شجاعا حازما ، وعرف « بأسد الملوك » فتلقاه بالقبول والاكرام ، وولاه وزارته ، وفوض اليه أمور مملكته وكان حسن التدبير ، تام الفضل ، متحببا الى الناس ، فصيح المنطق (٣) .

يحكى لنا « ابن بسام » عن بعض وزراء « اشبيلية » : أنه قال : عن ابن زيدون : « عهدى بأبى الوليد بن زيدون » قائما على جنازة بعض حرمه ، والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمعته يجيب أحدا بما أجاب به غيره لسعة ميدانه ، وحضور جنانه (٤) .

ولم يزل عند عباد وعند ابنه « المعتمد على الله » قائم الجاه ، وافر الحرمة الى أن توفى « باشبيلية » سنة ثلاث وستين وأربعمائة على خلاف ما ذكره ابن خلكان « من أنه توفى سنة تسع وستين وأربعمائة » (٥) .

---

(٣) سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى - تحقيق محمد أبو الفضل براهيم ص ١٦ .

(٤) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لأبى الحسن على بن بسام - القسم الأول ص ٢٩٢ .

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ١٦٨ .

وكان يسمى « بحترى المغرب » وذلك لحسن ديباجة لفظه ، ووضوح معانيه .

المناسبة التى أنشئت فيها الرسالة :

كانت « بقرطبة » امرأة ظريفة من بنات خلفاء العرب الأمويين المنسوبين الى « عبد الرحمن بن الحكم » المعروف « بالداخل » من بنى « عبد الملك بن مروان » تسمى « ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمن » ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله ، وتغلب ملوك الطوائف عليه وصارت تجاس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت ذات خلق جميل ، وأدب غض ، ونوادر عجيبة ونظم جيد ، ومن هذا النظم ما كتبت به الى ابن زيدون وهى عنه راضية .

ترقب اذا جن الظلام زيارتى
فانى رأيت الليل أكتم للسر

وبى منك ما لو كان بالبدر لم يزر
وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر (٦)

ويروى أنها كتبت على كمها وقيل على تاجها .

---

(٦) الذخيرة ص ٣٧٧ .

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها
وأمكن عاشقى من لثم ثغرى
وأعطى قبلتى من يشتهيها(٧)

ويقول ابن بسام : « وأما ولادة التى ذكرها « أبو الوليد بن زيدون » فى شعره فانها « بنت محمد بن عبد الرحمن الناصرى » وكانت فى نساء أهل زمانها واحدة أقرانها ، حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر • وكان مجلسها « بقرطبة « منتدى لأحرار مصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب الى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، الى سهولة مجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ــ على أنها ــ سمح الله لها ــ وتغد زالها اضطرحت التحصيل ، وأوجدت الى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها مجاهرتها بلذاتها ، زعموا أنها كتبت على أحد عاتقى ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها

(٧) سرح العيون ص ٢٣ .

ولها مع « ابن زيدون » أخبار طوال • توفيت سنة أربعمائة وأربع وثمانون وقد قاربت المائة(٨) .

وكان « ابن زيدون » كثير الشغف بها ، والميل اليها ، وأكثر غزل شعره فيها وفى اسمها ، وهام بها أيضا الوزير « أبو عامر بن عبدوس» وكلف بعشرتها ، وكان قصدهم الظرف والأدب ، وكانت « ولادة » كثيرة العبث به ، ولها معه نوادر ظريفة ، ومن بين هذه النوادر أنها مرت يوما بداره وهو جالس وأمامه بركة تتولد من مواصى وأقدار ، وحوله جماعة من أصحابه ، فوقفت عليه وقالت : يا أبا عامر :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فلم يحر جوابا فمضت وحفظت هذه النادرة واشتغل بها الناس وهذا البيت لأبى نواس ، تمثلت به ونقلته هذا النقل الحسن من المدح الى الهجاء(٩) •

والباعث لابن زيدون على انشاء هذه الرسالة أن ابن عبدوس لما سمع بها أرسل اليها امرأة من جهته تستميلها اليه ، وتذكر لها محاسنه ومناقبه ، وترغبها فى التفرد بمواصلته ، فبلغ ابن زيدون ذلك

(٨) الذخيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الأول ص ٤٢٩ ومابعدها المواصى جمع « مواصة » غسالة الثياب •
(٩) سرح العيون ص ٢٤ •

فأنشأ هـذه الرسالة البديعة ، جوابا له عن لسانها تتضمن غرائب من سب أبى عامر والتهكم به ، والهجاء له ، وجعلها جوابا له على لسان « ولادة » وأرسلها اليه عقيب رجوع المرأة • فبلغته منـه كل مبلغ ، واشتهر ذكرها فى الآفاق • وأمسك ابن عبدوس عن التعـرض لولادة الى أن انتقل ابن زيدون الى « أشبيلية » ومات بها(١٠) •

الألفـاظ والمعـانى :

أما بعد أيها المصاب بعقله ، الموزط بجهله •

أما : حرف يقتضى مضى أحد الشيئين ، ويبتدأ به الكلام •

« بعـد » : تستعمل فى الترتيب الصناعى ، والتقدير مهما يكن بعـد وهى كلمة يبتدىء بها الخطباء والكتاب كلامهم ، وفخـر بهـا سحبان فقال :

وقد علمت قيس بن عيـلان أننى
اذا قلت أما بعـد أنى خطيبهـا

ويروى البيت فى الخـزانة :

(١٠) ذاته والديوان ص ١٩٣ •

لقـد علم الحى اليمانون أننى
اذا قلت أما بعد أنى خطيبها(١١)

وكثيرا ما تأتى عقيب قول « الحمد لله » وتسمى فصل الخطـاب لأنها فصلت بين الكلام الأول والتالى • وأول من قالها : « داود عليـه السلام » وقيل أول من قالها « قس بن ساعدة الايادى » والأول أصح وانما « قس » أول من خطب بها فى العرب •

المصاب : اسم لمن نزلت به مصيبة •

العقل : المعرفة المستعملة فى تحرى النفـع ، وتجنب الضرر • مشتق من عقل الناقة أى منعها من الشرود ، وسميت الدية عقـلا لأنها تعقل الدم وتحبسه ، ويقول الجاحظ : « العقل اسم يقع على المعرفة بالصواب والخطأ » ، وقال الراغب الأصفهانى : العقل يقال للقـوى المهيئة للعلم ، ويقال للعلم الذى يستفيده الانسان بتلك القوى « عقل » والى الأول أشار النبى — ﷺ — بقوله : « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » •

والى الثانى أشار بقوله : « ما كسب أحـد شيئا أفضل من عقل يهديه الى هدى أو يرده عن ردى » وكل موضع ذم الله فيـه الكفـار

(١١) خزانة الأدب للبغدادى جـ ٤ ص ٣٤٦ • والبيت من شواهد الكافية لابن الحاجب الاسنوى نسبة الى اسنا — قنا •

بعدم العقل فاشارة الى الثانى دون الأول ، وكل موضع رفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل فاشارة الى الأول(١٢) .

وقوله تعالى : « لمن كان له قلب » أى عقل ، ويقول الجاحظ أيضا : هو مادة تتولد من الأغذية المقوية للعصب « المورط » : الورطة : الهلاك ، وأصله الأرض المطمئنة التى لا طريق فيها . والوراط : الخديعة . وفى الحديث « لا خلاط ولا وراط »(١٣) .

والوراط أيضا : أن تجعل الغنم فى وهدة من الأرض لتخفى على المصدق مأخوذ من الورطة وهى الهوة العميقة فى الأرض ، ثم استعير للناس اذا وقعوا فى بلية يعثر المخرج منها .

بين سقطه : الفاحش غلطه ، السقط : ما لا يرضى . وسقط المتاع بعنى رديؤه . وسقط القول : خطؤه . وسقط الرجل فى يده اذا فعل ما يندم عليه . والفاحش : ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال ومنه الفاحشة أى الفعلة القبيحة .

الغلط : الخروج عن الصواب نطقا أو فعلا .

العاثر فى ذيل اغتراره : الأعمى عن شمس نهاره .

العثار : السقوط وما قاربه . الاغترار : الغفلة .

(١٢) مفردات الراغب الأصفهانى ص ٣٤٢ .
(١٣) النهاية لابن الأثير جـ ٤ ص ٢٠٥ .

العمى : افتقاد البصر . وشمس النهار هنا كناية عن الصواب الواضح الذى تركه هذا المكتوب اليه ، وعمى عنه حتى تعرض للذم أو هو كناية عن مقدار هذه المرأة التى هى كالشمس حتى طلب منها ما لا يصل اليه .

الساقط سقوط الذباب على الشراب : الذباب فى اللغة : يقع على هذا العروف من الحشرات وعلى النحل ونحوهما . قال ﷺ : « كل ذباب فى النار الا النحلة »(١٤) . والحديث يروى عن « عباد بن صهيب واسماعيل المكى » عن « الأعمش عن عطية بن سعيد العوفى . والمراد به هنا الذباب المعروف .

التهافت : تهافت الفراش فى الشهاب : التهافت الترامى مع خفة وطيران ، والفراش نوع من الذباب رقيق الجسد ، ومنه قيل لكل عظم رقيق فراشة .

الشهاب : الشعلة من النار ، ومن ذلك قيل للسواد المنقط بالبياض « شهبة » تشبيها بالسواد المنقط بالبياض .

فان العجب أكذب ومعرفة المرء نفسه أصوب : « فان » صلة لقوله « أما بعد » ولابد من اقتضائها الفاء لرد الكلام بعضه على بعض .

(١٤) الحيوان للجاحظ جـ ٣ ص ٣٩١ .

العجب : ما يعجب الانسان من نفسه يعنى يستحسنه .

الكذب : ضد الصدق يقال فى المقال والفعال . وينسب أيضا الى نفس القول والفعل فيقال « فعلة صادقة ، وفعلة كاذبة » .

والمعرفة ادراك الشىء بتدبر لأمر ، وهو أخص من العلم فيقال فلان يعرف الله ، ولا يقال فلان يعلم الله ، متعد الى مفعول واحد ، وقيل « لن يهلك امرء عرف قدر نفسه » .

أكثم بن صيفى : وهو أكثم بن صيفى بن رباح التميمى ، أشهر حكام العرب فى الجاهلية وحكمائهم وخطبائهم ، أدرك مبعث النبى ﷺ ، وأسلم واختلف فى اسلامه والأكثر على صحته(١٥) وأنك وأسلتنى مستهديا من صلتى ما صفرت منه أيدى أمثالك ، الصلة : قرب الشىء وبلوغه ، ومنه سميت العطية صلة .

صفر الاناء : اذا خلا حتى يسمع له صفير لخلوه . وصفرت اليد اذا خلت ، وفى الحديث لا صفر(١٦) ، لأن العرب كانت تزعم أن ذلك حية فى البطن تسمى الصفر .

---

(١٥) الاصابة لابن حجر جـ ١ ص ١١٨ ـ ١٢٥ ذكره فى المخضرمين الذين ادركوا الجاهلية والاسلام ولكنهم لم يروا النبى صلى الله عليه وسلم وليسوا باصحابه باتفاق علماء الحديث .

(١٦) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٣٦٤ ولفظه « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » .

« متصديا من خلتى لما قرعت دونه أنوف أشكالك » التصدى : المقابلة من الصدى وهو رجع الصوت ، والخلة : المودة ، والخلل : الفرجة بين الشيئين ، والقرع : صوت ضرب شىء على شىء مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوادة » .

خليلتك : صاحبة مودتك أو زوجتك وكلا المعنيين ثم للمرسل لأن الخليلة والحليلة هى محل الغيرة على الرجل ، والرتاد : طالب الكلا وسمى به الطالب مطلقا ، وأصل الرود : التردد فى طلب الشىء يرتفق ـ رادة المرأة فى مشيتها فهى رواد ـ وقاد الشىء فانقاد له أى خضع وقود للكثرة ، وكانت القوادة فى العرب تكنى « أم حكيم » وفى المثل « أقوم من ظلمة »(١٧) .

« كاذبا نفسك : أنك ستنزل عنها الى ، وتخلف بعدها على » .

الخلف : ما جاء بعد الشىء ومنه سمى الخليفة ، وبالتحريك مثل خلف صالح ، وبالسكون للذم .

ولست بأول ذى همة دعته لما ليس بالنائل

وهو للمتنبى وحسن التمثيل به هنا لمطابقة المعنى فى طلب ما لا يوجد « ولاشك أنها قالتك اذ لم تضن بك ، وملتك اذ لم تحر عليك» قالتك : أبغضتك قال تعالى « ما ودعك ربك وما قلى » .

---

(١٧) مجمع الامثال للميدانى جـ ٢ ص ٤٧ .

والقلى بالياء شدة البغض ، فمن جعله من الواوى فهو من «القلو» أى الرمى ، ومن جعله من اليائى فمن « قلبت السويق » وغيره على « المقلاة » وفى الحديث « اخبر تقلة • ولفظه فى النهاية عن أبى الدرداء « وجدت الناس اخبر تقلة »(١٨) •

الضن : البخل بالشىء النفيس قال تعالى : « وما هو على الغيب بضنين »(١٩) • وما هو على الغيب بضنين أى بخيل على ما يوحى اليه ، وقرىء بظنين أى متهم ، فانها أعذرت فى السفارة لك ، وما قصرت فى النيابة عنك ، يقال أعذر الانسان اذا أتى ما صار به معذورا والسفارة المشى فى الصلح •

« زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه » •

المروءة : كمال المرء ، واللفظ مستعار من لفظ الشىء من الفم اذا طرحه •

« والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه » •

الانسانية : تمام الانسان ، والاسم : ما عرف به الشىء ، وأصله من السمو ، والجسم : يقال لكل ذى طول وعرض وعمق ولما لا يثبت

---

(١٨) النهاية جـ ٣ ص ٢٧٥ •
(١٩) سورة التكوير اية رقم ٢٤ •

له لون كالماء والهواء ، والهيولى : المادة المدبرة للصورة وهى أصل الشىء كالفضة فى الدراهم •

« قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليت فى مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال » •

القطع : الفصل ، وقطعت الأمر اذا فصلته من الشك ، ومنه الدليل القطعى • الخلال : جمع خلة وهى الطريقة الحسنة مأخوذ من الخلة بكسر الخاء : الطريق فى الرمل ، وقوله « استعليت » واستوليت « والجلال » و « الخلال » أنواع من الصناعات اللفظية من ترصيع وتجنيس •

« حتى خلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه » •

أصل الغض : النقصان فى الطرف ويستعار لما سواه •

« وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه » •

امرأة العزيز : زليخة المشغوفة بحب يوسف ، والشغاف جلدة رقيقة تحيط بالقلب ، وقرىء شعفها والشعاف أعالى الجبال •

ومن كلامها حين دخلت على يوسف بعد أن ملك مصر ، واحتاجت اليه « سبحان من جعل العبيد ملوكا بالطاعة ، وجعل الملوك عبيدا بالمعصية »(٢٠) •

---

(٢٠) شرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٥١ •

« الشرح والتحليل »

« أما بعد » وهى كلمة يستهل بها كثير من الخطباء والكتاب كلامهم فى خطبهم المحبرة ، ورسائلهم المحررة ، كأنهم يستدعون بها الاصغاء والانصات ، وحسن الاستماع ، ولذلك فخر بها « سحبان » فقال :

وقد علمت قيس بن عيلان أننى
اذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وكثيرا ما تأتى عقيب قول الخطيب أو الكاتب « الحمد لله » وتسمى هنالك فصل الخطاب ، لأنها فصلت بين الكلام الأول والتالى ، والتقدير « مهما يكن بعد » وتأتى عقيب البسملة وتأتى ابتداء كأنها عقيب الفكر والروية ، وأول من قالها « داوود عليه السلام » ، وقيل أول من قالها « قس بن ساعدة الايادى » والأول أصح ، وانما «قس» هو أول من خطب بها فى العرب .

« أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله » فهى ترميه بالجهل ، واختلال العقل وتلك مصيبة جلى ، ونائبة كبيرة فالعقل هو ملاك الانسان وقوام تصرفاته ، وهو السبيل الى تحرى النفع ، وتجنب الضرر لذلك يقول الجاحظ « العقل هو اسم يقع على المعرفة بالصواب والخطأ ، وايثاره اذا اقترنا فى زمان ، وكان العلم علة للعمل والقيد له ، وقال ﷺ : ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل ، وقوله عليه السلام :

ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه الى هدى أو يرده عن ردى » ويقول بعض الحكماء : هو جوهر بسيط ، وقال آخرون : هو جسم شفاف ومحله الدماء .

وبعض العلماء يقول : محله القلب مستدلا بقوله تعالى : « فتكون لهم قلوب يعقلون بها »(٢١) .

وقوله تعالى : « ان كان له قلب »(٢٢) أى عقل .

ويقول الجاحظ : هو مادة تتولد من الأغذية المقوية للعصب .

« المورط بجهله » وانعدام بصره بالأمور وهو على ثلاثة أضرب :

الأول : خلو النفس من العلم . وهذا هو الأصل .

الثانى : اعتقاد الشىء على خلاف ما هو عليه .

الثالث : فعل الشىء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا أو فاسدا(٢٣) .

« البين سقطه » يعنى الظاهر خطؤه ، الفاحش غلطه من الأقوال والأفعال ، الساقط فى اغتراره وغفلته ، وفى قوله « فى ذيل اغتراره »

---

(٢١) سورة الحج آية رقم ٤٦ .
(٢٢) سورة « ق » آية رقم ٣٦ .
(٢٣) مفردات الراغب ص ١٠٢ .

استعارة لطيفة ، كأنه كان يسحب ذيله تيها وعجبا فتعثر به فسقط والفقد مناسبة لما قبلها وما بعدها .

« وشمس النهار ها هنا » كناية عن الصواب الواضح الذى تركه هذا المكتوب اليه وعمى عنه حتى تعرض للذم أو هى كناية عن مقدار هذه المرأة التى هى كالشمس حتى طلب منها ما لا يصل اليه .

« الساقط مقرط الذباب على الشراب » : وهنا يذمه ويهجوه ، ويعيره بأنه متهافت على وصل « ولادة » كتهافت الذباب على الشراب ، وفى « كليلة ودمنة » من لم يرض بما يكفيه كان كالذباب الذى لا يرضى حتى يطلب الماء السائل من آذان الفيلة ، فتضربه بآذانها فتقتله »(٢٤) .

« المتهافت تهافت الفراش الى الشهاب » وهنا يرميه بالطيش والحمق ، والطمع فى وصال « ولادة » فهو كالفراش الذى يلقى وجهه فى النار ، وقيل فى « المثل » ما هم الا فراش طمع » ومعنى ذلك أن المكتوب اليه من جهله وتعرضه لما يؤذيه ، بمنزلة الفراش والذباب الواقع فيما يهلكه من غير الشعار أنه هالك . فان العجب أكذب ، ومعرفة المرء أصوب .

« فان » واقعة فى جواب « أما بعد » فهى صلة الموصول

(٢٤) كليلة ودمنة لابن المقفع .

ولابد من اقتضائها الماء لرد الكلام بعضه على بعض ، وهنا يرميه بالعجب والخيلاء ، وجهله بنفسه ، فالعجب بالنفس بحالة يظن أنه قد بلغ بها الغاية ، وحاز قصب السبق ، والواقع أن ذلك كذب وعجب وغرور ، حيث خيل له ذلك ما لا صحة فيه ، فمعرفة المرء لنفسه أصوب وقال عليه الصلاة والسلام « رحم الله امرءا عرف قدر نفسه » وأنك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صغرت منه أيدى أمثالك .

والمعنى أنك تتعرض من صلتى لما تخلو منه يد مرادك متصديا من خلتى لما قرعت دونه أنوف أشكالك .

والمعنى أنك تخطب من مودتى ما لا يصلح له أمثالك وأشكالك فدفعوا عنه وضربت أنوفهم دونه اما حقيقة أو مجازا لكون أنهم ردوا بحصل لهم من الهوان ما يحصل لمن يضرب أنفه ، خص الأنف بالضرب لأنه محل الشمم والكبرياء مع أن المثل للعرب ، يخاطب به الخاطب الكفء فيقول : « هو الفحل لا يقرع أنفه ، والأصل فحل الابل اذا ضرب وجهه عن الناقة التى لا يريدون نتاجها منه ، وتمثل به « أبو سفيان ابن حرب » حين بلغه زواج النبى ﷺ ابنته « أم حبيبة » .

« ذاك الفحل لا يقرع أنفه » مرسلا خليلتك مرتادة مستعملا عشيقتك قوادة » والمعنى : « انك ستنصرف عن هذه الخليلة الى وتعتاض عنها بى وهو ذم للمرسل لأن الخليلة أو الخليلة التى هى موضع الغيرة على الرجل لا تغار على مثله حتى تمشى بينه وبين النساء » كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها الى ، وتخلف بعدها على . والمعنى أنك

وعدت نفسك أن تترك الاتصال بهذه المرأة التى هى خليلتك وتتعوض عنها بحصولى وهـذا أمر لا يقع ، فأنت كاذب نفسك فى الوعد ، أو أنك واعدت هـذه المرأة التى هى عندك بمنزلة نفسك ، أنك اذا ظفرت بى تركتها وأطلقت سراحها لرغبتها فى البعد عنك فهى تسعى فى هذا الأمر سعى المجتهد وهـذا أمر لا يتم ، فقـد كذبتها فيما وعدت .

ولسـت بأول ذى همـة دعتـه لمـا ليس بالنـائل

وهـذا البيت للمتنبى ، وحسن التمثيل به ها هنا لمطابقة المعنى فى طلب ما لا يوجد لاسيما ان كان التصحيف أريد بلام النائل ، بقلب اللام كافا فان ذلك فى هـذا الموضع يكون عجبـا وكثيرا ما يعتمـد أهل الظرف شبيه ذلك فى مكاتبتهم ، وهو من قصيدة يمدح بهـا سيف الدولة ، ويذكر هجومه على الخارجى مطلعها :

ايلام طماعيـة العـاذل ولا رأى فى الحب للعـاقل

والمعنى : ليس الخارجى بأول صاحب عزيمة دفعته الى ما لا يناله « لا شك أنها قلتك اذ لم تضن بك وملتك اذ لم تغر عليك » .

والمعنى : أن المرأة التى راسلتها أبغضتك لأنها لم تبخل بك على من تصحبه دونها « فانها اعذرت فى السفارة نك أو ما قصرت فى النيابة عنك » ويعنى أنها بلغت عذر الاجتهاد فى الصلة بينى وبينك ، والمشى فى الصلح ، « حتى انها أتت بما صارت به معذورة ، زاعمة أن المروءة

لفظ أنت معناه » والمعنى أنها زعمت فى حديثها أن المروءة تجسمت فيك ، والانسانية صورتك . واللفظ مستعار من : لفظ الشىء من الفـم اذا طرحه .

ولفظت الرحا الدقيق . والمعنى « نفس الكلام وسره ، فاللفـظ جسم والمعنى روح وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه » .

والهيولى الصورة المعنوية التى يصب الجسم على مثالها ، وقـد نادى أفلاطون بنظرية المثل ، وخلاصتها « أن الأجسام المـادية تقليد للعالم المثالى المعنوى الأزلى » والمعنى : ان الانسانية تجسمت فيـك بمعناها ومبناها « قاطعة أنك انفـردت بالجـمال واستأثرت بالكمال ، واستعليت فى مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال » .

وهو هنا يتهكم منـه ويسخر به من أنه انفرد بالجمال واسـتأثر بالكمال واستولى على مراتب الجلال ومحاسن الخلال وهى جميعها من المحاسن اللفظية من : ترصيع ، وتجنيس » « حتى خلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه » يعنى بارك فى الحسن فأخجلتـه ، وأصل الغض النقصان فى الطرف ويستعار لمـا سـواه ، وبدأ بذكر الحسن فيما سرده من تواريخ ذوى الأوصـاف الشريفـة ، لأنه أول ما يعجب المرأة من الرجل ثم ذكر بقية الأوصاف بعـد ذلك من همـة عاليـة ، ومراتب جليلة .

« وأن امرأة العزيز رأتك نسلت عنه » وهو هنا يشير الى قصة « زليخة » امرأة العزيز وتولهها فى حب يوسف عليه السلام حتى نسيت منزلتها ومكانة زوجها فهو يقول له من باب السخرية والتهكم « أن الغرور بلغ بك حدا ظننت أن « زليخا » لو رأتك لنسيت جمال يوسف عليه السلام .

وقد اكتفينا بشرح هذه الفقرات ، وتلك الجمل والعبارات من الرسالة الهزلية لابن زيدون ، بيد أننا أثبتنا الرسالة كاملة اتماما للفائدة وبغية أن يطلع عليها طلاب العلم كاملة اتماما للفائدة ، وأملا فى اتمام شرحها ودراستها وتحليلها وتبيان الألوان الجمالية الواردة فيها فى طبعة لاحقة ان شاء الله .